

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم التاريخ

التجارة في الساحل الشامي في القرنين
12 ، 13 م / 6 ، 7 هـ

مقدمة من الطالب
أحمد عبد الله أحمد
لنيل درجة الماجستير في الآداب فرع التاريخ الوسيط

أ. د / محمد مؤنس
أستاذ العصور الوسطى

تحت إشراف :-
أ. د / أحمد رمضان
أستاذ التاريخ الإسلامي

القاهرة

2006

الفهرست

أ- و	المقدمة
10-1	نقد المصادر التاريخية
22-11	التمهيد
	الفصل الأول :
70-23	الساحل الشامي بين السیادتین الإسلامية والصليبية
	الفصل الثاني :
118-71	السلع التجارية
	الفصل الثالث :
167-119	الأسواق التجارية
	الفصل الرابع :
203-168	النظم المالية في مدن الساحل الشامي
206-204	الخاتمة
243-205	الملاحق
264-244	قائمة المصادر والمراجع

تعددت المصادر التاريخية في خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، السادس والسابع الهجريين ، فمنها المصادر العربية واللاتينية التي تناولت أحداث الحروب الصليبية على بلاد الشام خلال تلك الفترة ، ونبدأ بالمصادر العربية لأنها تمثل الجانب الذي تم الاعتداء عليه ، وقد تعددت هذه المصادر من مصادر تاريخية وجغرافية .

ومن أهم تلك المصادر كتاب الكامل في التاريخ ، لصاحبه ابن الأثير (555 - 630هـ / 1160 - 1233)⁽¹⁾ ، والذي ابتدأ فيه من بداية الخلق، وانتهى فيه بالأحداث إلى آخر سنة [1231 م / 628 هـ] ، أي قبل وفاته بعامين ، وقد تميز تاريخ ابن الأثير بأنه تاريخ شامل لأحداث العالم والممالك الإسلامية ، مع التركيز على ما كان يدور في بلاد الشام من أحداث الحروب الصليبية ، وتناول ابن الأثير في تاريخه إشارات وأحداث ذات طابع اقتصادي ، كان لها تأثير في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، أفادت البحث في كثير من جوانبه ، غير أنه يؤخذ على ابن الأثير أنه تحمس لأعمال أسرة عماد الدين زنكي ، في حين أنه تحامل على أعمال ودور صلاح الدين في كفاحه ضد الصليبيين .

كما يعد كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ [ت. 584 هـ / 1188م] ، من المصادر المهمة في تلك الفترة⁽²⁾ ، وقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة بين مصادر تلك الفترة ، نظرا لأن صاحبه قد دخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي ، واشتغل بالحياة السياسية والحربية ، مما جعله في احتكاك مباشر مع الصليبيين ، سواء كان ذلك من ناحية سياسية عن طريق السفارات المتبادلة بين المسلمين والصليبيين ، أو اجتماعية عن طريق الزيارات التي كان يقوم بها أسامة ابن منقذ للمناطق التي احتلها الصليبيون

(1) هو أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد ابن محمد ابن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين ، وقد ولد بالجزيرة ونشأ بها ، ثم رحل إلى الموصل مع والده لتلقي العلم ، وانتقل منها إلى بلاد الشام لتلقي العلم، وسمع هناك من جماعة ثم عاد مرة أخرى إلى الموصل ، حيث أستقر هناك لبعض الوقت منصبا على تحصيل العلم والإطلاع ، أنظر : **ابن خلكان** ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج 2 ، تحقيق إحسان عباس ، ط. بيروت 1968م، ص 35 .

(2) هو أسامة ابن مرشد ابن علي ابن نصر ابن منقذ الأمير مؤيد الدولة أبو المظفر الكناني الشيرازي ، فقد كان من أكابر ابني منقذ أصحاب قلعة شيزر ويعد من علمائهم وشجعانهم ، وقد اشتغل بالعلم وأنشغل به ، فله تصانيف عديدة في فنون الأدب والأخبار والنظم وغيرها من المؤلفات الأخرى ، وقد سكن مدينة دمشق ثم رحل عنها إلى مصر ، فظل بها حيث كانت له مكانة كبيرة عند الفاطميين ، حيث كانوا يستشيرونه في كثير من الأمور ، وظل هكذا حتى أيام الوزير الصالح ابن زريك حتى عاد إلى الشام مرة أخرى ، وأستقر بدمشق ثم أنتقل إلى حصن كيفا حتى أستطاع صلاح الدين ضم دمشق إليه ، حتى قام بإستدعائه وهو شيخ كبير جاوز الثمانين من العمر ، أنظر : **الحنبلي** ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج4 ، ط. بيروت ب.ت ، ص279 .

، واستقبالهم له في تلك المناطق ، فذكر في كتابه ما كان يدور داخل المعسكر الصليبي من مختلف مجالات الحياة .

وقد كان لكتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي أهمية كبيرة ، فمؤلفه هو أبو يعلى حمزة ابن راشد التميمي الدمشقي الكاتب [ت. 555 هـ / 1160م] ⁽¹⁾ ، ويعد كتابه عبارة عن مؤشر للمؤثرات التي واجهت وأثرت في الحركة التجارية في مدن الساحل الشامي ، ومنها الزلازل وما خلفته وراءها من دمار وخراب للمدن الساحلية، وتدمير للأسواق التجارية النشطة في تلك الفترة ، مما كان يؤدي إلى توقف الحركة التجارية لبعض الوقت لحين إعادة إصلاح ما خرب من أثر الزلازل.

وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ومؤلفه أبو شامة [ت. 665 هـ / 1267م] ⁽²⁾ ، وقد تتبع في كتابه أعمال نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي السياسية والعسكرية ، بالإضافة إلى إشارات عن أعمالهم الاقتصادية لصالح رعاياهم ، وكذلك علاقاتهم الاقتصادية مع المدن التجارية الإيطالية ، بل وذكر أعمال سلاطين الأيوبيين في مصر والشام ، وأبرز محاسنهم نظرا لالتحاقه بخدمتهم في بلاد الشام .

أما بالنسبة لكتب المعاجم الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت الحموي [626هـ / 1229م] ⁽³⁾ ، وقد أمد كتابه البحث بمعلومات عن طبيعة المدن الساحلية الشامية ، وأهم مصادر الإنتاج الاقتصادية لتلك المدن ، وخاصة وهي تحت السيطرة الصليبية ،

(1) ابن القلانسي من أسرة موسرة ، ظلت واضحة الوجود في مدينة دمشق من القرن الرابع الهجري حتى القرن التاسع تقريبا ، وهي أسرة لديها أملاك وضياع ومكانة اجتماعية كبيرة في دمشق ، حتى لقد تداول بعض أنبائها رئاسة مدينة دمشق ، ومنهم ابن القلانسي في بعض الفترات قرب أواسط القرن السادس الهجري أنظر : **الحنبلي** ، شذرات الذهب ، ج4 ، ص 174 ، **شاكر مصطفى** ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ج1 ، ط. بيروت 1983م ، ص 236 – ص 239 .

(2) هو عبد الرحمن ابن إسماعيل ابن إبراهيم ابن عثمان ابن أبي بكر ابن عباس المقدسي الدمشقي الشافعي ، فهو محدث ومؤرخ ، ولد بدمشق وقتل بها ودفن بباب الفراديس ، وقد تم تسميته أبو شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، وقد ختم القرآن ، وتفرغ لدراسة العلم ، وألف في كثير من العلوم ، وأتقن الفقه ودرس وأفتى ، وبرع في فن العربية ، ومع كثرة فضائله هذه ، إلا أنه كثير التواضع ويعيد عن التكلف ، أنظر : **الحنبلي** ، شذرات الذهب ، ج5 ، ص 318 ، **عمر رضا كحاله** ، معجم المؤلفين ، ج5 ، ط. بيروت 1957م ، ص 135 ، ص 136 .

(3) هو ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي ، فياقوت مؤرخ وأديب ولد ببلاد الروم ، وأعتقه مولاة عسكر الحموي ، فاشتغل بنسخ الكتب بالأجره ، ومات مولاة وبقي بيده بعض المال الذي تركه له ملاه ، فسافر به ، وجعل بعض تجارته في الكتب : أنظر : **عمر رضا كحاله** ، أنظر : معجم المؤلفين ، ج13 ، ص 178 ، ص 179 .

ووصف للمدن التي أستعادها المسلمون من الصليبيين في القرن الثالث عشر الميلادي ، السابع الهجري .

أما فيما يتعلق بمصادر الرحلة التي انتشر تأليفها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، السادس والسابع الهجريين ، ومنها رحلة ابن جبير (ت. 616 أو 617 هـ / 1219 أو 1220م) ⁽¹⁾ ، وقد قام بزيارة منطقة الساحل الشامي في طريقه إلى الحج ، وأوضح لنا ما كانت تتمتع به مدينة عكا الساحلية من ازدهار اقتصادي كبيراً ، وأنها مدينة شديدة الزحام بسبب كثرة وجود التجار بها سواء كانوا من المسلمين والصليبيين ، وذلك يوضح لنا أنه قام نشاط اقتصادي بين المسلمين والصليبيين بجانب المعارك الحربية التي كانت مستمرة بين الطرفين.

وكتاب ابن البيطار [ت. 646 هـ / 1249م] ⁽²⁾ ، وهو الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، وهو من الأندلس حيث أظهر السلع التجارية التي كانت تصدر من الساحل الشامي إلى سواحل الأندلس وأهمها الأعشاب التي دخلت في الصناعات الطبية ، ولاقت إقبالاً كبيراً من جانب التجار في مدن الساحل الشامي، بالإضافة إلى أماكن زراعتها .

أما فيما يخص كتب الحسبة ، وأشهرها ما ألفه الشيزري [ت. 589هـ / 1193م] ⁽³⁾ ، ولذلك جاء كتابه نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، لكي يقوم بتحديد ما على المحتسب من مهام يجب عليه القيام بها ، والشروط التي يجب أن تتوفر في المحتسب ، كما قام في الكتاب بتوضيح سلطات المحتسب ، وصلاحيات إقامته للحدود على المذنبين ، وقد قام بذلك خاصة في تلك الفترة ، لأنه ظهرت مظاهر العش التجاري في الأسواق بصورة كبيرة ، وقد استغلها التجار والباعة في الأسواق، لأنه ينتج عنها مكاسب كبيرة .

(1) هو أبو الحسن محمد ابن أحمد ابن جبير الكناني الرحالة ، وهو من ولد ضمرة ابن بكر ابن عبد مناة ابن كنانة الأندلسي الشاطبي البلنسي وقد سمع من أبيه بشاطبه ، أنظر: **المقري** ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 3 ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة 1949م ، ص 142 .

(2) هو ضياء الدين أبو محمد عبدالله ابن أحمد ابن البيطار ، ولد بالأندلس وتلقى تعليمه عن أبي العباس وعبدالله ابن صالح وأبي الحجاج ، وحوالي سنة 1220م / 617 هـ، نزح إلى الشرق ، وجاب أفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، ثم أستقر بمصر حيث عينه السلطان الكامل رئيساً للعشابين ، ولما مات الكامل ذهب ابن البيطار إلى بلاد الشام وأقام في دمشق حيث توفي ، أنظر : **شحاته قنواطي** ، تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط ، ط. القاهرة 1958م، ص 169 .

(3) هو جمال الدين أبو الفضائل عبد الرحمن ابن نصر ابن عبيد الله الشيزري ، وهو معاصر لصلاح الدين الأيوبي ، من طبقة الفقهاء ، وقد عمل فيما يبدو قاضياً ومحتسباً في دمشق وطبرية وغيرهما من المدن الشامية الأخرى ، أنظر : **شاكر مصطفى** ، التاريخ العربي ، ج 2 ، ص 290 .

ولأهمية موضوع الحسبة ، فإن ابن الأخوة [ت. 729 هـ/1328م] ⁽¹⁾ ، قام بتأليف كتابه معالم القربة في أحكام الحسبة ، لكي يؤكد على ما ذكره الشيزري في كتابه فيما يتعلق بشئون الحسبة ، حيث نقل عنه كتابه ، وأضاف عليه بعض الفصول الأخرى ، التي لم يتناولها الشيزري في كتابه .

وأيضاً كتاب آخر وهو نهاية الرتبة في طلب الحسبة لأبن بسام ، والذي أخبرنا عن العناصر العاملة في الأسواق وأهمها المحتسب الذي كانت تعينه السلطة الحاكمة من أجل مراقبة الأسواق ، وتنظيم عملية البيع والشراء ، كما أظهر لنا ذلك الكتاب كيف كانت عليه الأسواق من اتساع وتخطيط وأماكن تواجدها في المدينة، وعلى الرغم من أن كتب الحسبة أخذت من بعضها ، غير أنه وجدت فروق بينهما.

ويعد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها ، لمؤلفه جعفر ابن علي الدمشقي ⁽²⁾ ، وقد شهدت الفترة التي تم فيها تأليف هذا الكتاب ثورة تجارية في حوض البحر المتوسط في عالم العصور الوسطى ، وكانت هذه الثورة التجارية من الأسباب الرئيسة في حركة الحروب الصليبية على بلاد الشام ⁽³⁾.

وقد كان الكتاب بمثابة مصدر أساسي عن حياة التجار وتقسيمهم ، وقد تناول الكتاب مسائل اقتصادية بحتة مثل مبدأ تقسيم العمل والمقايضة وعيوبها ، كما تناول أسباب نشوء العملة وضرورتها وطرق تكوين رأس المال ⁽⁴⁾ .

وقد عرض الكتاب بتقسيم أنواع المال المستخدم في الأعمال التجارية ، ثم أشار المؤلف إلى طرق استخدام رأس المال ومدح الأغنياء بكثرة الأموال إذا استخدموا هذا المال في الأشياء النافعة ⁽⁵⁾ .

(1) هو محمد ابن محمد ابن أحمد ابن أبي زيد ابن الأخوة القرشي ضياء الدين المحدث ، الذي ولد في عام 648/1250م هـ ، فقد تتلمذ على يد كل من الرشيد العطار وأبي مضر ، ودرس على أيديهم صحيح مسلم ، وتفقه في الحديث هو وأبوه وأخوه ، **ابن حجر العسقلاني** ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج 4 ، ط. حيدر آباد 1350 هـ ، ص 168 .

(2) يعد مؤلف هذا الكتاب عالم من علماء المسلمين الذين ضربوا في علم الاقتصاد بسهم وافر ، وقد عاش هذا العالم في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري ، ويظهر من مقدمة كتابه أنه انتهى من تأليفه في 1175م/ رمضان 570 هـ ، ورغم ذلك فلا يعرف له ترجمة ولا تعرف سنة وفاته ، على الرغم من قيمة كتابه من الناحية الاقتصادية ، أنظر : **الدمشقي** ، الإشارة إلى محاسن التجارة ، ط. بيروت 1999م ، ص 6 ، **السيد محمد عاشور** ، رواد الاقتصاد العربي ، ط. القاهرة 1974م ، ص 170 ، **أحمد الله أحمد** ، نقد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها ، بحث مقدم ضمن أعمال سمنار العلاقات بين الشرق والغرب .

(3) **أحمد شلبي** ، الحروب الصليبية ، ط. القاهرة 1966م ، ص 20 .

(4) **السيد محمد عاشور** ، المرجع السابق ، ص 170 .

(5) **الدمشقي** ، المصدر السابق ، ص 14 ، ص 15 .

كما بين الدمشقي في كتابه ، أساليب الغش وأنواعه التي يتعرض لها التجار في عملية البيع والشراء ، وبين طرق مواجهة هذا الغش الذي انتشر بكثرة في تلك الفترة ، كما تناول التعريف بأسعار المعادن ومناطق إنتاجها ، وأوضح الفرق بين المعادن ذات القيمة ، والمعادن الرديئة .

أما أهم ما أشار إليه مؤلف الكتاب فهو التعريف بالتجار وتقسيمهم من حيث التاجر الخازن والركاض والمجهز ، بالإضافة إلى ذلك وجه إليهم النصائح والإرشادات التي تفيدهم في ممارسة التجارة ، وقد أظهر لنا الكثير من الظواهر التي كانت منتشرة في الأسواق الساحلية الشامية خلال تلك الفترة .

وقد جاء هذا الكتاب المتخصص في الحياة التجارية لكي يعبر عن طبيعة العصر ، الذي شهد حركة تجارية نشيطة ، لم تقتصر على مدن الساحل الشامي فقط، بل نالت مدن الظهير الشامي قسما كبيرا من هذا الأزدهار .

أما فيما يخص بكتب الآثار ووصف العمارة ، فإن المقرئزي [ت. 845هـ/1441م] ⁽¹⁾ ، قام بتأليف كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، والذي يمثل أهمية كبيرة في التعرف على الحياة اليومية داخل الأسواق ، من بيع وشراء ووصف عام لتكوين الأسواق وتقسيمها من حيث الأسواق الموسمية التي تقام في المناسبات الخاصة بالمسلمين والصليبيين ، والأسواق الدائمة التي كانت تقام بشكل يومي ، كما أعطى صورة عن حياة صغار التجار الذي كانوا منتشرين في الأسواق بشكل كبير ، والذين اعتمد عليهم التجار الأثرياء في تصريف بضائعهم .

وأهم المصادر الصليبية هو كتاب وليم الصوري William Archbishop Of Tyre ، أعمال الفرنج فيما وراء البحار A History Of Deeds Done Beyond The Sea ⁽²⁾ .

(1) هو أبو العباس تقي الدين أحمد ابن عبد القادر ابن محمد ابن إبراهيم البعلبي العبيدي الحسيني ، أصله من مدينة بعلبك من حارة هناك تسمى حارة المقارزة وإليها ينسب، كما كان يدعي النسب الفاطمي ، ومن هنا كان العبيدي في نسبه ، وقد ولد المقرئزي في القاهرة عام [1365 م / 766 هـ] ، ، وقد درس على مشايخ عصره وأشهرهم ابن الصائغ ، وغيره من العلماء الآخرين ، وقد برع المقرئزي في علوم الدين من فقه وحديث ، كما كان للأدب من نظم ونثر حظ من إهتماماته ، وعمل المقرئزي بالتتجيم والرمل والإصطربالاب ، واستمرت هذه الهوايات طوال حياته ، مما كانت سبب في ترقيه للعمل الحكومي ، فكان موقعا أول الأمر في ديوان الإنشاء ، وتولى بعد ذلك مناصب أخرى ، وعمل بتدريس الوعظ والحديث في عدد من المساجد ، كما تولى منصب الحسبة في القاهرة ، وتنتقل بعد ذلك في عدد من المناصب بين مصر والشام، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يميل إلى التاريخ أنظر : **شاكر مصطفى** ، التاريخ العربي ، ج 3 ، ص 140 ، ص 141 .

(2) مؤلفه هو وليم الصوري William Archbishop Of Tyre (1130 – 1186م/524-582هـ) ، كان وليم رئيس لأساقفة مدينة صور ، وكان مواطنا من مملكة بيت المقدس

وهذا المصدر مهم لكل من يشغل بحقل الحروب الصليبية ، لما فيه من معلومات عن حياة وطبائع الصليبيين في المستعمرات الصليبية ، وطبيعة التعاون بين الصليبيين والتجار الأوربيين ، من حيث مساعدة التجار للعناصر الصليبية في إخضاع المدن الساحلية الشامية ، في مقابل منح هؤلاء التجار إمتيازات تجارية كبيرة في المدن التي تمكن الصليبيون من إخضاعها بمساعدتهم ، كما أن صاحبه كان قد أدرك ما كان عليه الصليبيين من ضعف ، ولذلك أخذ يحذرهم من الخطر الإسلامي على الصليبيين .

كما يعد كتاب فوشيه الشارترى وهو :

History Of The Expedition To Jerusalem (1095-1127), Traslated By : Frances Rita Ryan , The University Of Tennessee, U.S.A , 1969 .

من الكتب المهمة في دراسة تلك الفترة (1) .

وقد تناول فوشيه في كتابه تاريخ الكيان الصليبي من عام 1095 م ، حتى عام 1127م وهو عام وفاته ، حيث احتوى الكتاب على معلومات قيمة عن الأوضاع الصليبية من الداخل ، كما أوضح لنا الكتاب مراحل تطور الكيان الصليبي في تلك الفترة.

أما فيما يتعلق بالمصادر الصليبية فأهمها كتب الرحلة إلى الأراضي المقدسة فيما عرفت بإسم مجموعة P.P.T.S ، وهى اختصار لاسمها Palestine Pilgrims Text Society ، والتي كانت عبارة عن مدونات شخصية لأصحابها لما شاهدوه أثناء رحلة الحج إلى بيت المقدس ، والتي أفادتنا في التعرف على أوضاع الكيان الصليبي من الداخل ، وخاصة الأوضاع التجارية والاقتصادية السائدة في ذلك الوقت، وترجع

الصليبية ، ولم يذكر وليم الصوري شيئا عن نسبه ، وبذلك ظل نسبه مجهولا ، وقد أتقن وليم الصوري العديد من اللغات منها الفرنسية التي كانت لغة البلاط في مملكة بيت المقدس ، إلى جانب اللغة العربية التي كانت يتحدث بها المحيط الإسلامي ، ويضاف إلى تلك اللغات إتقانه للغة اليونانية التي كان يتحدث بها الكثير من سكان الشرق ، كذلك أتقن اللغة اللاتينية وهى لغة الكنيسة والمدارس ، وذلك بحكم تربيته الدينية ، ويضاف إلى ذلك إلمامه ببعض اللغات الأخرى مثل العبرية والفارسية

William Archbishop Of Tyre , A History Of Deeds Done Beyond The Sea , Vol. I ,II , Trans. by Babcock and Kery , New York 1943 , P. 4 , P.9 .

(1) فوشيه كان هو القسيس الذي حضر مجمع كلير مونت 1095م ، ثم قام بمصاحبة روبرت الثاني دوق نورمانديا في الحملة الصليبية الأولى 1096م ، ثم أنضم إلى بلدوين البولوني مؤسس إمارة الرها الصليبية : أنظر :

Fulcher Of Chartres , A History Of The Expedition To Jerusalem (1095-1127) , Traslated By : Frances Rita Ryan , The University Of Tennessee , U.S.A 1969 , P. 337 .

الأهمية لتلك المجموعة أنها لم يتم تأليفها في عام واحد ، بل على مدى القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين - السادس والسابع الهجريين ، مما أدى إلى معرفتنا بتطور الحركة التجارية داخل المناطق التي سيطر عليها الصليبيون ، وخاصة الموانئ البحرية الشامية ، والتي كانت تستقبل سفن الحجاج الأوروبيين ، الذين أتوا على سفن تجارية إيطالية ، مما أثبت أن كلا من الحج والتجارة حركتان متلازمتان.

كما يوجد مصدر آخر لمؤرخ مجهول بعنوان ⁽¹⁾The City Of Jerusalem أي مدينة بيت المقدس ، وهو مصدر على قدر كبير من الأهمية ، حيث قام بوصف مدينة بيت المقدس تحت السيطرة الصليبية ، وأوضح تفصيلات تجارية مهمة من وضع التجار وتقسيمات الأسواق في المدينة ، بل وأماكن تواجد أسواق السلعة الواحدة في أماكن معينة .

ويعد مصدر الحرب الصليبية الثالثة لمؤلف مجهول ، ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشي ، شاهد على ما كان يحدث داخل المعسكر الصليبي أثناء حدوث المجاعات ، فقد استغل تجار المدن الإيطالية تلك الأزمات في إبتزاز الصليبيين ، بالتخلف على البضائع والمواد الغذائية عندهم في المخازن حتى يرتفع أسعارها ، ولكي يجنوا من وراء ذلك أرباحاً مرتفعة .

ولا نغفل حظ الموضوع من الدراسات السابقة من المراجع الحديثة ، وقد سبقت هذه الدراسة العديد من الدراسات التي تناولت الناحية الاقتصادية ، ونذكر منها على سبيل المثال : دراسة للدكتورة عفاف سيد صيرة ، وهي : العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر و الشام في الفترة من 1100 - 1400م) ، ط. القاهرة ، 1983م ، وقد تناولت تلك الدراسة العلاقات الاقتصادية التي قامت بين مدينة البندقية ومصر والشام ، خلال ثلاثة قرون ، والمعاهدات التي تمت بين هذه الأطراف من أجل تنشيط الحياة الاقتصادية بين الطرفين .

ودراسة أخرى للدكتور حاتم عبد الرحمن الطحاوي ، وهي بعنوان: الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام ، ط. القاهرة ، 1999م ، وقد تناولت تلك الدراسة الحياة الاقتصادية بشكل عام بين كل من الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام ، بالإضافة إلى دور المدن التجارية الإيطالية في الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام ، من صناعة وزراعة وتجارة .

وكتاب آخر هو العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، لمؤلفه الأستاذ الدكتور علي السيد علي ، والذي أبرز دور تجار المسلمين وتعاملهم مع التجار الأوروبيين ، ومدى اعتماد التجار الأوروبيين على المسلمين في جلب البضائع والسلع

(1) **Anonymous** , *City Of Jerusalem (1220 A.D)* , Tras. By : C.R. Conder, London 1896 , P. 1 , P. 7 .

التجارية من وسط آسيا إلى الساحل الشامي ، والعكس بالنسبة للمنتجات الأوروبية التي قام هؤلاء التجار بتصريفها في الظهير الشامي .

وأفاد الباحث من كتاب الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية الأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض ، وذلك من خلال تأثير الزلازل على الأسواق وحركة البيع والشراء بها ، بل وتأثر القوة الشرائية بحركة الزلازل وكساد السلع وارتفاع الأسعار .

وكان للمراجع الأجنبية والمعربة أهمية بالغة لهذا الموضوع ، ومنها كتاب: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، تأليف : هايد ، ت. أحمد محمد رضا ، حيث تناول الأوضاع التجارية لشرق البحر المتوسط بصفة عامة، ودور التجار الأوروبيين في الوساطة التجارية في عصر الحروب الصليبية بين الشرق والغرب .

كما كان للمراجع الأجنبية دورها في تدعيم هذه الرسالة ، ونذكر من بين أبرز هؤلاء هو يوشع براور Joshua Prawer ، الذي جاء إلى فلسطين عام 1936، وانصب اهتمامه على دراسة تاريخ العصور الوسطى ، وتخصص في حقل الصليبيات ، وقد قام بتخريج عدد من تلامذته ، الذين أخرجوا لنا الكثير من المقالات والبحوث في حقل الحروب الصليبية . وقد استفاد البحث بعدد من الكتب والمقالات التي قام بتأليفها في هذا التخصص ومنها :

1. The Latinn Kingdom Of Jerusalem , London , 1972 .
2. The Venetians In Crusader Acre (Reconsideration), In Cross Cultural Convergences In The crusader Period, New York , 1995 .
3. Crusader Cities , Harry A . Miskimin, The Medieval City, Britain , 1968 .

حيث تخصصت تلك الأعمال في دراسة الكيان الصليبي من الداخل ، مما كان له أثر كبير في هذا البحث ، فقد تناولت تلك الأعمال الأوضاع الاقتصادية في المناطق التي كانت خاضعة للصليبيين في الساحل الشامي ، بالإضافة إلى كيفية التعامل بين المسلمين والصليبيين .

كما جاءت مؤلفات John La Monte وهي :

1. Feudal Monarchy In The Latin Kingdom Of Jerusalem (1100-1291) , New York , 1970 .
2. The World Of Middle Ages , New York , 1949 .

والتي تخصصت في تناول الأوضاع الاقتصادية الداخلية في الكيان الصليبي الذي انتشر على طول الساحل الشامي ، كما ألقت هذه الأعمال بعض الضوء على العلاقات التجارية التي قامت بين المسلمين والصليبيين بعيدا عن الأعمال العسكرية .

ذلك تعريف عن أهم مصادر دراسة التجارة في الساحل الشامي في القرنين 12 ، 13 م - 6 ، 7 هـ .

أما فيما يتعلق بموضوع الساحل الشامي بين السیادتين الإسلامية والصليبية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين - السادس والسابع الهجريين، وهذا ما سوف يتناوله الفصل التالي .

M

جغرافية الساحل الشامي

يتناول هذا التمهيد ؛ التعريف بموقع الساحل الشامي جغرافيا ، وحدوده وامتداده شمالا وجنوبا ، ومناطق اتساعه وطبيعة الصخور المكونة للشريط الساحلي ، ونوع التربة التي تمتد على طول الساحل الشامي . كما يتعرض الفصل لطبيعة المناخ التي تسود الإقليم في فصل الشتاء والصيف ، وأيضا يتعرض الفصل للأنهار التي تجري في المنطقة ، والتي اعتمدت عليها في الزراعة وأستخدموها في النقل الداخلي ، وأخيرا التعريف بالمدن التي وقعت على الساحل الشامي ، وكان لها ميناء صالح من الشمال إلى الجنوب .

فتعد بلاد الشام ذات مساحة كبيرة ، يحدها من الغرب البحر المتوسط (بحر الروم) ، ومن جهة الشرق البادية التي تبدأ من مدينة أيلة عند البحر الأحمر حتى مدينة الفرات في العراق، ثم من نهر الفرات باتجاه الشمال حتى تصل إلى الحدود التركية السورية عند منطقة لواء الأسكندرونة . أما الحدود الجنوبية فإنها تتقابل مع مصر عند منطقة رفح ، حيث الحد الفاصل بينهما، وعلى ذلك تم تقسيم منطقة بلاد الشام إلى أجناد وهى : جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند حمص ، وجند دمشق، وجند قنسرين ، والعواصم والثغور (1) .

وأما المنطقة الساحلية الشامية فهي عبارة عن شريط يقع شرق البحر المتوسط ، وغرب الجبل ، وقد امتد من ساحل شبه جزيرة سيناء حتى خليج الاسكندرونة ، ويتسع هذا السهل الساحلي في الشمال والجنوب ، فيبلغ اتساعه عند مدينة عسقلان عشرين ميلا ، ويضيق عند جبل لبنان ، ثم يحدث انقطاع لهذا الامتداد الساحلي عند مصب نهر الكلب فيصل الجبل إلى البحر ، وقد استفاد السكان من هذه الميزة ، إذ أعطتهم موقعا إستراتيجيا مهم ا ، فقد شكل ذلك مانعا طبيعيا أمام القوات الغازية للمنطقة، ونقطة التلاقي الثانية عند جبل الكرمل حيث تميز السهل الساحلي بخصوبة أرضه، وخاصة عند سهل صارونه وسهل فلسطين جنوبا، ومنطقة الساحل عند لبنان شمالا، وبرغم امتداد السهل الساحلي لهذه المسافة الطويلة، غير أننا لا نجد خليجا نهريا عميق، غير خليج الاسكندرونة ، وقد ترتب على ذلك عدم وجود موانئ مهمة (2) .

وقد رجع تكوين الساحل الشامي الطبيعي إلى ارتفاع قاع البحر في العصر الجيولوجي المعروف بالعصر الثالث Tertiary ، وفي عصور جيولوجية تالية غطي الطمي الذي ينجر من سفوح الجبال طبقات الطباشير Chalk في الساحل، وكثبان الرمل الأحمر بالقرب من شاطئ بيروت التي تغطي المنطقة الساحلية هي من موج

(1) الأصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، مراجعة : محمد شفيق غربال ، ط. القاهرة 1961 م ، ص 43 .

(2) أحمد رمضان أحمد ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1977 م ، ص 15 .

البحر المتوسط ، ومصدرها من مصب النيل الذي يجرف معه الرمال من مصر العليا والسودان ، هذا الساحل اللبناني الذي يتألف من شواطئ ضيقة ، ومن مناطق كانت يوماً قاعاً للبحر ، ساحل خصيب ، ويزيد من خصوبته أن أرضه تتجدد بسبب ما يصبه من الطمي المنجرف من أعالي الجبال والينابيع التي تظهر عند سفوح الجبال ، وهي منطقة زراعية تصلح لزراعة الفاكهة والخضار (1) .

ويلاحظ أن منطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط قاعها يأخذ في العمق التدريجي من شرق جزيرة صقلية ومن رصيف جزيرة مالطة إلى الحوض الأيوني حيث توجد أكثر جهات البحر المتوسط عمقا ، وفي المنطقة المحصورة بين لبنان وجزيرة قبرص ينخفض قاع البحر لحوالي 2000 م (2) .

وقد تكونت صخور تلك المنطقة من عناصر كلسية كثيرة التفتت ، نخرة ينساب الماء فيها دون عائق ، ويتسلسل في منافذ ضيقة ، ثم يتجمع في مغاور تحت الجبال كأنها خزانات للماء يفيض منها إلى أسافل البلاد ، ومن السواعد التي تمتد إلى تلك الأحواض الطبيعية ، المياه المتكونة من الثلوج الذائبة في قمم لبنان ، ومادتها لا تكاد تنقطع عنها أبداً ، فإن جبل صنين مثلاً ووادي الأزز والنقر المحيطة بهما عبارة عن أحواض من الثلج (3) .

ونتيجة لطبيعة تلك الصخور ، فقد تتسرب كثير من مياه المطر في مساحات كبرى من الصخور الكلسية وتفقد ، غير أن بعضها يتجمع في مجار تحت الأرض ويخرج في شكل ينابيع ، والمياه التي لا تتسرب في الطبقات الكلسية تشكل جداول وأنهار ، وتتحول إلى سيول بعد هطول الأمطار بغزارة ، كما أنها تنقلص أثناء جفاف الصيف فتصبح شريطاً من المياه إذا لم تجف تماماً (4) .

وقد تميزت منطقة الساحل الشامي بأنها منطقة سهلية ، امتدت تلك السهول مع امتداد الساحل الشامي من الشمال إلى الجنوب ، وقد اختلف اتساعها من مكان إلى آخر ، فبينما يبلغ اتساعه ما يقرب من 20 كيلو متر أً بالقرب من مدينة اللاذقية في الشمال ، نجد أنه يضيق في بعض الأماكن بحيث لا يزيد عرضه رقعته فيها عن 2 كيلو متر ، بل تنعدم السعة في بعض الجهات حيث تشرف الجبال على الساحل كما هو الحال بالقرب من طرابلس في الشمال ورأس الناقورة في الجنوب ، وتكثر النتوءات

(1) فيليب حتى ، لبنان في التاريخ ، ت. أنيس فريحة ، ط. بيروت 1959م ، ص 14.

(2) يسري الجوهري ، جغرافية البحر المتوسط ، ط. الإسكندرية 1984م ، ص 14 .

(3) هنري لامنس اليسوعي ، تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار ، ط. بيروت 1996م ، ص 67 .

(4) فيليب حتى ، تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين ، ت. جورج حداد وعبد الكريم رافق ، ج 1 ، ط. بيروت 1958م ، ص 50 .

الطبيعية والصخور الضارية في البحر في هذا السهل ، مما يسر منذ القدم على نشأة العديد من المواني كميناء صيدا وصور وطرابلس وبيروت ، وتتحدر من أعالي سلسلة جبال لبنان بعض المجاري المائية التي تمده بالمياه اللازمة للري والزراعة (1) .

أما بالنسبة لأودية لبنان التي تنوط بها المجاري المائية ، فهي على خط عمودي بالنسبة إلى ظهر الجبل وبالعرض منه ، ولما كان الجبل موازيا للبحر مجاريا لساحله انحدرت منه السيول إلى هذه الأودية فلفصبت في بحر الشام على أقرب طريق ، والمياه قد فتحت لها طريقا على خط مستقيم بعد نفوذها في أعطاف الجبل وخرقها لفروعه الثانوية (2) .

وقد مثل السهل الساحلي وجبال لبنان الغربية قلب منطقة الساحل الشامي، فعلى الرغم من ضيق السهل الساحلي بسبب اقتراب سلاسل جبال لبنان الغربية من البحر، غير أن هناك عددا من العوامل الطبيعية والاقتصادية قد تضافرت على أن تجعل من السهل الساحلي منطقة مهمة لزراعة الفاكهة ، ولعل من أهم هذه العوامل هي خصوبة التربة وجودة صرفها وسهولة حرثها (3) .

لذلك فقد ضمت منطقة السهل الساحلي والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربية النباتات المعتادة في سواحل البحر المتوسط ، وتتصف هذه المنطقة بوجود الشجيرات الدائمة الخضرة ونباتات الربيع التي تزهر بسرعة وتعطي أريجاً قويا ، ولا تزال تزدهر أنواع النبات التي زودت الإنسان بأهم موارده الغذائية : كالقمح والشعير والدخن وغيرها (4) .

أما منطقة المرتفعات الغربية فتقع السلاسل الجبلية إلى الشرق من السهل الساحلي ، وهي امتداد طبيعي لسلسلة جبال يهوذا في فلسطين ، وتتكون هذه السلاسل من مجموعة متتالية من المرتفعات إلى ثلاث كتل بواسطة نهر العاصي، ثم بواسطة الممر الذي يصل طرابلس بحمص ، وتستقبل هذه السلاسل كمية كبيرة من الأمطار تسمح بتغذية معظم الأنهار الكبرى في سوريا ولبنان بالمياه ، وتتحدر منها العديد من المجاري المائية في اتجاه البحر المتوسط ، ونظرا لخصوبة الأرض واعتدال المناخ ، فهذه المنطقة من أكثر المناطق كثافة سكانية من غيرها (5) .

(1) يسري الجوهري ، جغرافية البحر المتوسط ، ص 215 .

(2) هنري لامنس ، تسريح الأبصار ، ص 283 .

(3) يسري الجوهري ، المرجع السابق ، ص 224 .

(4) فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، ج 1 ، ص 51 .

(5) يسري الجوهري ، المرجع السابق ، ص 215 .